الفصل الثانى

ما هى إيجابيات الإسلام؟

فى التجربة الإسلامية ونظرتها للعالم هناك الكثير من الحقائق القيمة التى تحتم على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتعرف عليها وأن تضعها عين الاعتبار، كما أن هناك الكثير من الحقائق القيمة عن الولايات المتحدة الأمريكية التى سيستفيد بها العالم الإسلامى إذا تعرف عليها وقدرها وتبناها. ولإلقاء النظر على هذه الحقائق، فقد وضعت لهذا الفصل والذى يليه العنوانين التاليين: «ما هى إيجابيات الإسلام» و «ما هى إيجابيات أمريكا».

لم يعتبر محمد ﷺ الذى ولد فى العام ٥٧٠ م نفسه مؤسسًا لدين جديد، بل كان يعيد دين الله الأصلى ـ الذى بدأه إبراهيم ﷺ ـ على نحو يجعل استيعابه أكثر يسرًا لكل البشر. ولذلك فإن القيم التى دعا إليها النبى محمد ﷺ لم يكن مقررًا لها أن تكون جديدة، بل هى قيم أبدية سابقة الوجود تعبر عن حقائق خالدة.

كان لدى العرب مفهوم المروءة الذى يشمل مجمعًا من الصفات كالكرم والشجاعة والأمانة والوفاء بالعهد والقدرة على تصحيح الخطأ وحماية الضعيف، وغيرها من الصفات ـ وهو مفهوم يماثل التعبير الألمانى «menschlichkeit» وتعبير لهجة اليارين «sei a mensch» لهجة اليَديش. المروءة هى التى تجعل من المرء إنسانًا مهذبًا، ويرى المسلمون فى الرسول ﷺ المثال للإنسان الكامل.

الإنسان الكامل

تُوفى عبد الله، والد محمد ﷺ، قبل مولده، وتُوفيت أمه آمنة عندما كان فى السادسة من عمره؛ وعلى غير عادة العرب فى ذلك الوقت، كان محمد ﷺ طفلاً وحيداً أولاه جده عبد المطلب رعايته بحب وحنان حتى وافته منيته وهو بالكاد فى الثامنة من عمره، وبعد وفاة جده قام برعايته عمه أبو طالب الذى كان يعده فى مرتبة أبنائه.

وعندما أصبح فى الخامسة والعشرين من عمره، انجذبت إليه السيدة خديجة وهى أرملة ثرية فى الأربعين من عمرها وكان يعمل لديها، ونظراً لشخصيته التى تتميز بالأمانة وكفاءته فى إدارته لشئونها التجارية، فقد عرضت عليه الزواج، و قبل محمد ﷺ عرضها وعاشا حياة زوجية سعيدة استمرت طيلة خمسة وعشرين عاماً إلى أن تُوفيت خديجة فى نفس العام الذى تُوفى فيه عمه أبو طالب. كانت السيدة خديجه أولى زوجاته ﷺ وأنجبت له ستة أبناء، أربع بنات وولدين. ومات الولدان فى طفولتيهما.

وأصبحت صفات محمد ﷺ فى الصدق والتواضع والأمانة والسمعة الطيبة وحسن الخلق مضرب الأمثال حتى أصبح يلقب بالصادق الأمين، وكان كل من يريد السفر يودع أمواله وممتلكاته القيمة لديه ليحفظها له. ظهرت رجاحة عقله فى التحكيم من خلال القصة الساحرة التى حدثت عندما كان النبى ﷺ فى الخامسة والثلاثين من عمره، وكان يتم فى ذلك الوقت إعادة بناء الكعبة، فعندما بلغت عملية البناء مرحلة وضع الحجر الأسود (وهو الجزء المتبقى من الهيكل الأصلى، والذى يقع فى الركن الجنوبى الغربى) فى مكانه، نشب خلاف حاد بين قبائل مكة حيث طالبت كل قبيلة بأن تحصل على شرف وضع الحجر. فاحتكم الناس إلى النبى محمد ﷺ حتى يفصل فى هذا الخلاف، فطلب قطعة من القماش ووضع الحجر فى منتصفها، وطلب من ممثل كل قبيلة أن يمسك طرف القماش، ثم قاموا بحمله معًا ووضعوه فى مكانه، وهكذا تشاركت كل القبائل فى شرف حمل الحجر الأسود.

وإذ أزعجته وثنية قومه، كان محمد ﷺ يعتزل مجتمع مكة ليتأمل، مترددًا على غار خارج مكة (وكان قد أتم الأربعين من عمره فى ذلك الوقت)، وكان يقضى هناك أوقاتًا طويلة كانت تصل إلى عدة أسابيع فى المرة. وقد نزل عليه جبريل رئيس الملائكة

أثناء اعتكافه فى الغار وضمه ثلاث مرات وهو يقول له فى كل مرة: «اقرأ»، فكان النبى ﷺ يجيب وهو خائف ومتحير فى كل مرة قائلاً: «ما أنا بقارئ»، فعندئذ تلا عليه جبريل أولى آيات نزلت فى القرآن: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق: ١ـ٥]؛ وهذا الحدث يجعلنا نستحضر بشارة جبريل رئيس الملائكة لمريم بالمسيح ﷺ؛ وألقى جبريل بالقرآن فى قلب محمد ﷺ تمامًا كما نفخ روح المسيح فى رحم مريم؛ فقد كانت مريم عذراء وكان محمد ﷺ أميّا، وقد أبلغ جبريل محمدًا ﷺ، عندما نزل عليه مرة لاحقة أنه سيكون نبيّا ورسولاً من الله لقومه.

وبعد أن شعر بالخوف على سلامة عقله، هرع محمد ﷺ إلى منزله عند السيدة خديجه وهو يرتجف ويصيح: «دثرونى! دثرونى!»، فطمأنته السيدة خديجه وكلها ثقة فى أصالة شخصه ورجاحة عقله، ولكى تزيد من اطمئنانه، اصطحبته معها إلى ورقه بن نوفل، ابن عمها لاستشارته، وكان ورقة قد تنصر، وكان على دراية جيدة بالتوراة والإنجيل، فلما أخبره محمد ﷺ بما قصته له، قال له: «والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى، ولتكذبن ولتؤذين ولتخرجن ولتقاتلن»، ثم تنهد وقال: «ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه»[1].

كانت السيدة خديجة أول من آمن بدعوة محمد ﷺ للإيمان بإله واحد، وكانت سنداً له وملاذًا لراحته ومعينًا له فى كل المحن حتى موتها، وقد آمن بعدها كلٌّ من على، ابن عم النبى ﷺ (كان فى العاشرة من عمره حينها)، وأبى بكر الصديق، صديقه الحميم.

ولخوفهم من غضب أهل مكة، مارس المسلمون الأوائل دينهم الجديد فى الخفاء لمدة ثلاث سنوات، بينما كان الإسلام ينتشر بهدوء بين سكانها، إلى أن نزل الأمر الإلهى للرسول بالجهر بالدعوة فى قوله تعالى: ﴿**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥)**﴾ [الشعراء: ٢١٤ـ٢١٥].

اعتبر كفار مكة أن هذا الدين الجديد يمثل تهديداً لأسلوب حياتهم واقتصادهم الذى كان يقوم بالأساس على رحلة الحج السنوية لمكة، فحاولوا إثناء الرسول ﷺ عن هذا

الدين فعرضوا عليه أى شىء يريده ـ أموالاً أونساء، حتى أنهم عرضوا عليه السيادة عليهم ـ إذا كف عن الاستمرار فى دعوته، فأجابهم ﷺ بقوله: «والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الدين ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وبعد ثلاثة عشر عامًا من إيذائهم للنبى ﷺ حاول أهل مكة أن يقتلوه، فهاجر ﷺ هو وأتباعه إلى يثرب، وهى مدينه على بعد مائتى ميل شمال مكة، وقد أطلق عليها فيما بعد (مدينة النبى أو المدينة). واستمرت الحروب مع مكة لمدة عشر سنوات أخرى إلى أن عاد إليها النبى ﷺ فى النهاية منتصراً. وخاطب أعداءه السابقين يوم دخوله مكة قائلاً: «لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء»؛ وبذلك كسبهم بكرم أخلاقه.

عمل الرسول جاهداً للقضاء على التمييز القائم على الطبقة الاجتماعية أو نوع الجنس أو الحالة الاقتصادية، وقد جذبت دعوة الإسلام إلى المساواة والصلاح والحرية الكثير من أفقر فقراء مكة. ولقد نادى الرسول ﷺ بقوة بتحرير العبيد، فبلال الذى كان عبداً حبشيّا (جرى عتقه) كان من أصحاب الرسول ﷺ وكان أول مؤذن فى الإسلام؛ كما حدد رسول الله ﷺ مقدار ورع المرء بمقدار حُسن معاملة المرأة، حيث قال: «خيركم خيركم لأهله».

وحيث إنه لا يمتلك المسلمون صوراً تجسد النبى محمداً ﷺ، فإنهم يفضلون وصفه من خلال الوصف التقليدى الوارد عن على بن أبى طالب له ﷺ فى «الحلية»:

«لم يكن بالطويل الممغط، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم، ولم يكن بالجعد القطط ولا بالسبط، كان جعداً رجلا، ولم يكن بالمطهم ولا المكلثم، وكان أبيض مشربًا، أدعج العينين أهدب الأشفار، جليل مشاش الكتد، دقيق المسربة، أجرد، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب، وإذا التفت التفت معًا، بين كتفيه خاتم النبوة، وهو ﷺ خاتم النبيين، أجود الناس كفّا، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفى الناس ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه أحبه، يقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ». صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله[٢].

ولأنه ﷺ أثرى حياة قومه إلى حد بعيد، كانت لوفاته وقع شديد عليهم فلم يحتملوا سماع خبر وفاته ﷺ ؛ وعند سماع الخبر، ذهب أبو بكر ـ الخليفة الأول ـ إلى المسجد وخطب فى الناس قائلا : «أيها الناس من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت» ثم تلا قوله تعالى : ﴿ **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ﴾ [آل عمران : ١٤٤] ؛ وبهذه الكلمات أغلق أبو بكر الباب تمامًا أمام المسلمين من أن يعبدوا النبى ﷺ ، إلا أنهم يتخذونه قدوة ويلتزمون بسنته .

النبى كقدوة

يرى المسلمون أن النبى ﷺ ، يلخص ويوجز كل الرسالات التى أتى بها الأنبياء السابقون، تمامًا مثلما تلخص خاتمة الكتاب الموضوعات التى تناولها الكتاب كله ؛ فقد أوضح وتبين عقيدة التسليم المطلق وتوحيد الله التى دعا لها إبراهيم ﷺ ، كما كانت لديه القدرة على تفسير الأحلام التى تميز بها يوسف، وروح (الملك المحارب التى منحها الله لداود، وحكمة سليمان، وشرائع موسى، وروحانية عيسى صلى الله عليهم جميعًا وسلم ؛ وتحمل الابتلاء وصبر خلال فترة انقطاع الوحى المؤقت مثل أيوب ﷺ . لقد اجتاز النبى ﷺ الطريق الذى يسلكه كل الباحثين عن الله والذى يبدأ من الجهل بوجود الخالق إلى أن يصل إلى مرحلة التنوير واكتشاف وجوده، وهو طريق يرتاده كل الباحثين عن الروح . كان محمد ﷺ نبيّا وهاديًا روحانيّا، كان رئيسًا للدولة وزعيمًا للقوم، كان قاضيًا أعلى وحكمًا فى الخلافات، كان مصلحًا اجتماعيّا، كان ربّا للأسرة وزوجًا وأبًا محبّا ؛ لذلك يرى المسلمون فى رسول الله ﷺ عند قيامه بكل الأدوار السابقة القدوة والمثال الذى يجب أن يحتذى به كل رجل و امرأة عند قيامهم بهذه الأدوار فى حياتهم الشخصية بأسلوب يتوافق مع الإرادة الإلهية ؛ لقد كان محمد ﷺ هو الإنسان الكامل الذى خاض رحلة الوصول إلى أقصى مراحل التطور الإنسانى، ولذلك فهو يستطيع إرشاد الإنسانية إلى كيفية خوض تلك المراحل .

ولأنه يتعين على المسلمين أن يتبعوا سنة النبى ﷺ ، فقد وضع المعلمون الروحانيون المسلمون عدة صفات للنفس تتحلى بها الروح البشرية فى طريقها للوصول

إلى الكمال. ومن المفيد عدم الاعتقاد بأن هذه الصفات للنفس تمثل تسلسلاً مستقيمًا تضيع فيها المراحل السابقة عند الوصول لمرحلة جديدة، لكنها طبقات تضاف إلى شخصية الفرد، وهذه الصفات هى:

١ ـ **النفس الأمارة:** وهى النفس الضالة المفرطة الدنيا، التى توسوس لنا بارتكاب المعاصى.

٢ـ **النفس اللوامة:** وهى التى تدرك أخطاءها وتلوم نفسها على الأخطاء التى ترتكبها وتسعى إلى إصلاحها. وبإمكاننا أن نطلق عليها ضميرنا الإنسانى، وهى التى تساعد على صد الوساوس السيئة التى تبعثها النفس الدنيا.

٣ـ **النفس الملهَمة:** وهى التى تميز الإلهام المرسل إليها من الله، وتنسبها له، ثم تستجيب. وبهذا يصبح المرء أداة واعية للأفعال الإلهية على الأرض.

٤ـ **النفس المطمئنة:** وهى التى حققت الرضا التام والمتبادل مع الله؛ فأصبحت راضية مرضية ويُنادى الله على هذه النفس يوم القيامة: ﴿**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي**﴾

[الفجر: ٢٧ـ٣٠].

٥ـ **النفس الكاملة:** عند هذه الدرجة من التطور الروحى تصبح النفس شديدة الشفافية بالنسبة لإرادة الله وخاضعة لها خضوعًا كاملاً. فهى تحب الله والله يحبها، وقد وصف حديث للرسول إحدى علامات هذا الحب فى قوله فيما يرويه عن رب العزة سبحانه: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه**[٣]».

ولكن كيف يبلغ المرء هذه الدرجات المتعددة؟ كيف يتمكن المرء من «اقتفاء أثر النبى ﷺ» حتى يصل إلى درجة الإنسان الكامل؟ لقد سعى معاصرو النبى ﷺ إلى تحقيق هذا عن طريق مصاحبته (أصحاب النبى ﷺ) مما جعلهم يكتسبون منه طاقة روحانية خاصة جعلت حب الله يشع من قلوبهم. إن الإسلام بأكمله هو فى الواقع السعى لاتباع سنة الرسول ـ أى أن نصبح من صحابة الرسول لكى ننشر الوجود الإلهى فى الكون، مثلما كان يفعل ﷺ.

وليحذو حذوه، يستطيع هؤلاء الذين لم يعيشوا فى زمن ومكان الرسول مصاحبته باتباع الرسالة التى جاء بها للبشرية كلها. ولأنها آخر نسخة لرسالة إبراهيم فإن رسالة محمد ﷺ تخبر الإنسانية بوجود الله، وذلك من خلال الرؤية الإلهية للدين الحق ﷺ.

رسالة محمد ﷺ: التقرب إلى الله

تبدأ رسالة النبى محمد ﷺ بوصفه بسيطة، فهى تتحدث عما يشكل العمل الصحيح والمعرفة الصحيحة والفضيلة الصحيحة، أى الإسلام والإيمان والإحسان؛ حيث يشير **الإسلام**، أى الخضوع لله، إلى الجهد الذى نبذله فى مجموعة من الشعائر الدينية الصحيحة، بينما يشير الإيمان إلى الاعتقاد الصحيح فى وجود الله، أما **الإحسان** فهو الحياة وفقًا لأسلوب مدرك لله، وهو ما يطلق عليه البوذيون اليقظة؛ وهى تجمع بين حالتين: حب الله من صميم قلوبنا، وانشراح النفس نحو التقرب من الله.

ولذلك فإن الرسالة المحمدية تخاطب جميع الأجزاء المتميزة للنفس البشرية:

١ ـ **الإسلام**، اختيار طاعة الله بحريه مطلقة (الإرادة).

٢ ـ **الإيمان**، السعى لمعرفة الحقيقة الإلهية عن طريق العقل (التفكر).

٣ ـ **الإحسان**، حب الله دون سواه (القلب) وتوق النفس للاتحاد مع الله (الروح).

إن الإسلام ليس عبادة موسى أو عيسى أو محمد ﷺ، أو عبادة التعاليم التى بُعث كلٌّ منهم ليدعو إليها، بل إنه يدور حول استخدام كلٍّ من هذه التعاليم وأى تعاليم أصلية أخرى أنزلها الله للبشرية، لعبادة الله فى خشوع و التقرب منه سبحانه وتعالى.

وهناك حديث مشهور للنبى، يروى أنه ﷺ كان يجلس يومًا بين أصحابه فدخل عليهم غريب ـ عُرف فيما بعد بأنه جبريل ـ جلس أمام الرسول مباشرة وسأله عدة أسئلة، وفى البدء سأل وقال: يا محمد أخبرنى ما الإسلام؟ ورد الرسول بما أصبح يعرف بعدئذ بأركان الإسلام الخمسة قائلاً: الإسلام أن تعبد الله ولا تُشرك به شيئًا وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتحج البيت وتصوم رمضان، قال: إذا فعلت ذلك فقد أسلمت، ولدهشة من كانوا يراقبون المشهد، قال السائل المجهول: نعم، قال صدقت،

فلما سمعنا قول الرجل «صدقت» أنكرنا. قال يا محمد أخبرنى ما الإيمان؟ قال الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته والكتاب والنبيين وتؤمن باليوم الآخر. قال فإذا فعلت ذلك فقد آمنت؟ قال نعم، قال صدقت. قال يا محمد أخبرنى ما الإحسان؟ قال أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك[٤]...

يرى المسلمون أن هذا الحديث يوضح مسار التطور الدينى، والتى تبدأ من مجرد ملاحظة خارجية للتدين، ثم تتحول إلى تعبير داخلى عن الإيمان إلى حالة من التقرب من الله. وحتى فيما بين المتدينين لا تنزع كل الأرواح إلى التقرب من الله، ليس أكثر من أولئك الذين يظهرون ميلاً لأن يصبحوا خبراء فى الطب؛ أما فيما بين أولئك الذين يتوقون إلى التقرب من الله، فإن قليلين منهم هم الذين يستطيعون ضبط النفس والجدّ فى العمل المطلوبين لتحقيق ذلك، تمامًا مثلما أن القليلين ممن يرغبون فى أن يصبحوا أطباء على استعداد لبذل الجهد المطلوب لتحقيق ذلك

.

رسالة محمد ﷺ

الجزء الأول: افعل الصواب

إن أفضل ما قام به المسلمون ـ وما زالوا ـ هو تنفيذهم للوصية الأولى من خلال تأديتهم لعباداتهم والتى تعرف بالأركان الخمسة. إن الشريعة الإسلامية تطلق على هذا الجانب البعد الرأسى من العقيدة (وهو العلاقة بين الخالق ـ الخلق) لفظ العبادات التى تتضمن مجموعة معتقدات واجبة وشعائر العبادة التى تساعد النفس البشرية الساعية للحقيقة على اكتشاف الوجود الإلهى بمفردها وتُعلمها كيف تعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ وتعظمه.

الجهد الصحيح: أركان الإسلام الخمسة

يتكون الإسلام من الأركان الخمسة المعروفة، وهى الواجبات التى يجب أن يقوم بها كل إنسان مطيع يؤمن بالله، والتى يطلق عليها علماء الفقه «العمل الصالح» وهى ممارسات الشعائر التى يجب على الفرد القيام بها كى يصبح ملتزمًا بالدين[٥].

وقد علمنا رسول الله ﷺ الأركان الخمسة على النحو التالى:

١ ـ **شهادة أن لا إله إلا** الله **وأن محمدًا عبده ورسوله:** هذه هى الشهادة التى يؤدى النطق بها إلى دخول الفرد فى دين الإسلام وفى أمته، وهى تشبه «عهد الولاء» الذى يقدمه أى مهاجر جديد للولايات المتحدة؛ وقد أكد الرسول ﷺ بقوة على أن من ينطق بالشهادة يأمن على نفسه وماله، ولا يحل لغيره من المسلمين إيذاؤه.

والقصة التى تجسد هذه التعاليم وقعت أحداثها فى فترة الخلاف بين الرسول ـ الذى انتقل إلى المدينة ـ وأهل مكة، الذين نبذوه وحاولوا قتله، حيث التقت فرقة استطلاع إسلامية بأخرى غير مسلمة، نشب على إثر ذلك قتال بينهما، انتهى بانتصار المسلمين، فقام أحد الناجين المتبقين من أهل مكة بالركوع على ركبتيه ونطق بالشهادة، ولكن قتله أحد الصحابة، وعندما عادوا وسمع الرسول ﷺ بما حدث سأله عن سبب قتله فأجاب الرجل بأنه نطق بالشهادة فقط لكى ينقذ نفسه من الموت وليس عن صدق إيمان، فسأله الرسول: «هلا شققت عن صدره لتعلم صدق إيمانه؟» وظل الرسول ﷺ يكرر عليه السؤال بشده حتى شعر الصحابى بندم شديد.

دائما ما أنصح تلاميذى من غير المسلمين بأن يتعودوا نطق «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، فهى مناسبة عند زيارتهم لأى بلد إسلامى، خاصة البلاد التى تتحدث العربية، حيث يمكنك أن تستخدم «لا إله إلا الله» لإنهاء أى مقايضة فى السوق لصالحك، أو لوقف مجادلة وتهدئة النفوس، أو للتعبير عن مواساتك، كما أن باستطاعتك أيضًا أن تنطق بها بعد زفرة للتعبير عن إحساس اليأس.

عند نطقهم بالشهادة لا يسلم المسلمون بوحدانية الله فقط، بل إنهم أيضًا يعترفون ضمنيّا بجميع الرسل المعروفة أسماؤهم مثل إبراهيم وموسى وعيسى، وأيضًا غير المعروفة أسماؤهم بالنسبة لنا. كما أن فى الشهادة استجابة بشرية للبلاغ الإلهى فى اليهودية الموجه لكل البشرية: «إن الله يأمر البشر جميعًا أن ينتبهوا إلى حقيقة أن الله واحد، فيجيبوا بدورهم: لا إله إلا أنت».

إن ترديد «لا إله إلا الله» فى تضرع لها نتائجها الإيجابية، خاصة عندما يتم ذلك بشكل جماعى. فذلك يجعل الناس يشعرون بالنشوة والطمأنينة والسكينة وتجدد النشاط، وتساعد البعض على جعل الحجاب بينهم وبين الله أكثر شفافية. وهى من

الأذكار الرئيسية للطرق الصوفية، التى ترددها بصورة جماعية أسبوعيّا، مائة مرة أو أكثر ـ و بمفردهم يوميّا؛ إلى عشرات الآلاف من المرات. إن كلمة «إله» تماثل الكلمة العبرية «e1» أو «eloh» والتى تعنى الله، ولفظة «الله» هى اختصار «ألا له» أو «الله»، وطبقًا للعهد الجديد، كانت كلمات المسيح على الصليب: « ألوى، ألوى، لما شبقتنى؟» (إنجيل مرقس ١٥ : ٣٣، إنجيل متى ٢٧ : ٤٦)، تنطق بالعربية كالتالى: «إلهى إلهى لماذا تركتنى؟ . »

٢ ـ **الصلاة:** تعظيم الله ـ سبحانه وتعالى ـ من خلال أداء الصلاة خمس مرات فى اليوم والليلة فى اتجاه الكعبة فى مكة؛ ومواقيت الصلاة تتوافق مع الساعة الكونية؛ مع الفجر، والظهر، وبعد الظهر «العصر»، والغروب «المغرب» وعندما يزول الشفق من السماء فى الليل «العشاء»، وتتكون من مجموعة من الحركات الإيقاعية؛ القيام، ثم الركوع، ثم الرجوع إلى القيام، ثم السجود، والوجه للأرض، ثم الجلوس، ثم السجود مرة أخرى، وهكذا تتم ركعة واحدة، وبعد إتمام ركعتين يقرأ المرء التشهد أثناء الجلوس. وتبدأ الصلاة بالتكبير، ثم قراءة الفاتحة، وهى أول سورة فى القرآن: ﴿ **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة: ١ ـ ٧] ، آمين، ثم قراءة سورة قصيرة أو أى آية من القرآن.

وفى الركوع يقول المرء «سبحان ربى العظيم»، ثم يرفع من الركوع للقيام ويقول «سمع الله لمن حمده»، ويسجد مرتين فى كل مرة يردد «سبحان ربى الأعلى». ويجب أن يكون الإنسان طاهراً عند تأدية الصلاة، وتتحقق هذه الطهارة بالوضوء (غسل الوجه واليدين حتى المرفقين، ومسح الرأس، وغسل أو مسح القدمين)، وفى حالة عدم وجود الماء يمكن التيمم، وذلك عن طريق لمس تراب أو رمل جاف ثم مسح الوجه واليدين به.

وقد تحددت الطريقة التى تؤدى بها الصلاة فى رحلة الرسول، إلى الحضرة الإلهية، حيث اطلع ﷺ على آيات الله: ﴿ **لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ** ﴾ [النجم: ١٨].

وقد رأى النبى ﷺ طوال الرحلة أعدادًا كبيرة من الملائكة يقفون صفوفًا ويسبحون الله ـ سبحانه وتعالى ـ بصورة دائمة بأوضاع مختلفة، ولأنه ﷺ رأى أن هذه المشاهد تبدو مؤثرة بقوة (تمامًا كما يشعر غير المسلمين عندما يشاهدون جموع المصلين تتحرك كجسد واحد)، ثم دمجت هذه الأوضاع لتصبح هى حركات الصلاة التى نعرفها. ومن معراج الرسول ﷺ ونزول الصلاة فى هذه الليلة، شاع القول بين المسلمين بأن «الصلاة معراج المؤمن».

يتضمن التشهد الذى يقرأ فى الجلسة الأخيرة الصلاة على محمد ﷺ وآله (التى تعنى وفقًا لبعض التفسيرات كل أتباع محمد ﷺ وعلى إبراهيم وآله)، وذريته (آل إبراهيم تمثل حسب أحد التفسيرات التضرع لكل اليهود والنصارى والمسلمين) وكل الصالحين من البشر (الصالحين فى كل الأديان)، وتختتم بالسلام على الملائكة حيث يؤمن المسلمون أنهم يجلسون على الكتفين الأيمن والأيسر لكل إنسان يسجلون أعماله اليومية. تعكس الصلاة لغة جسدية موحدة تدعو إلى الاحترام. فالناس كانوا فى المجتمعات القديمة، وحتى وقت قريب فى اليابان، يسجدون احترامًا لسادتهم ورؤسائهم، وحتى الآن يقوم الناس فى اليابان بالانحناء أمام بعضهم البعض للدلالة على الاحترام، ويقوم الشخص الذى ينتمى لطبقة اجتماعية أقل بالانحناء بدرجة أكبر أمام الشخص الذى يعلوه فى الطبقة الاجتماعية؛ والألفاظ الواردة بالتشهد بسيطة، حتى أن أى يهودى أو مسيحى أو أى شخص يؤمن بالله يستطيع ترديدها بدون أن يتعارض ذلك مع مبادئ عقيدته.

أينما ذهب المرء فى أى مكان فى العالم الإسلامى، من إندونيسيا إلى السنغال، يستطيع المسلم أن يدخل إلى المسجد ويقف ملتصق الكتف بجوار أى مسلم ليؤديا آخر الصلاة بنفس اللغة ونفس الحركات، وقد يحمل الشخص المجاور لك فى الصلاة آراء مختلفة فيما يتعلق بماهية الدولة الإسلامية، وربما يكون منتميًا إلى مدرسة فقهية مختلفة، وربما يرى أن الحرب على العراق صائبة أو خاطئة، وربما يكون جمهوريّا أو ديمقراطيّا، سنيّا أو شيعيّا، إلا أن المسلمين فى النهاية يصلون كجسد واحد. فكما يعتقد المسيحيون أنهم يتحدون فى جسد المسيح، فإن المسلمين يتحدون فى تأديتهم لعباداتهم؛ لأن الصلوات الخمس هى عمل يقوى أواصر العلاقة بين المسلمين.

٣ ـ **الزكاة:** وهى أن يخرج المرء من أمواله ما لا يقل عن ٢,٥ فى المائة سنويّا إذا بلغت النصاب، بقصد تطهير هذه الأموال وتحويل العمل إلى عبادة؛ وتختلف الزكاة تبعًا لطبيعة العمل الذى يزاوله الفرد ويحصل منه على الدخل، فالدخل الذى يأتى من التعدين (مثل النفط والألماس) تقدر نسبة الزكاة عنه بـ٢٠ فى المائة، والهدف من ذلك بصفة خاصة هو مساعدة الفقراء وتوفير حد أدنى من مستوى المعيشة لهم، كما يمكن أيضًا إنفاقها فى تحقيق أغراض أخرى تنفع الرفاهية العامة.

لقد جعل الإسلام الزكاة واجبًا دينيّا؛ ولذلك يرى الكثيرون أن ذلك يربط بين الإسلام والدولة. ويرى بعض العلماء أن الدخل والضرائب الأخرى التى تفرض حاليًا على المسلمين تفى بشرط الزكاة؛ وذلك أن نسبة الضرائب المفروضة فى وقتنا الحاضر ليست فقط أكثر من الـ ٢,٥ فى المائة، بل إن المسلمين فى الولايات المتحدة يدفعون نسبه تزيد على ٣٠ فى المائة؛ لذلك فهم يطالبون بتخفيض هذه النسبة، يرفض علماء آخرون هذا المبدأ ويطالبون بأن تكون الزكاة فرضًا دينيّا منفصلاً ويُدفع تبعًا للنسبة التى حددها الشرع، وهو رأى صحيح إذا كان الفرد يؤمن بفكرة انفصال الدين عن الدولة.

٤ ـ **الصيام:** وهو الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين والنشاط الجنسى من طلوع الفجر إلى غروب الشمس طوال شهر رمضان (الشهر التاسع فى التقويم الهجرى)، فكما يصوم المسيحيون لمدة أربعين يومًا، وهو ما يسمى «الصيام الكبير»، يصوم المسلمون شهر رمضان، ورمضان ميقات زمنى معلوم، كما أن المسجد والكنيسة والمعبد مواقيت مكانية معلومة؛ ولذلك فالاحترام الذى نوليه لدور العبادة يجب أن نوليه أيضًا لشهر رمضان، فهو شهر للتدبر وتطهير النفس والابتعاد عن صخب الحياة الدنيوية إلى وقت التأمل الأكثر عمقًا، لا يحل لنا أن ندخل دارًا للعبادة بغرض النميمة أو ارتكاب المنكرات أو لقراءة مجلة «پيپيول»، رغم أنى على ثقة من أن هناك من يفعل ذلك؛ والصيام دون الامتناع عن المنكر، مثل النميمة واللغو فى الحديث، يكون غير مجد، فقد أخبر الرسول ﷺ أن من صام دون أن يحفظ لسانه ويمتنع عن فعل المنكر، فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وقد ذكر ﷺ ذات مرة أن سكوت الصائم تسبيح لله ونومه عبادة.

إن الهدف الأساسى من صوم شهر رمضان هو الوصول إلى تقوى الله، فهو ليس عقابًا، بل تدريبًا يعجل بالتقدم الروحى لدى الإنسان؛ وهذا التدريب يعلمك سريعًا أن لك روحًا، فبعد عدة أيام من الصيام يبدأ نشاط النظام الجسمانى يهدأ، وتنفصل الـ «أنا» عن جسدك ومشاعرك لتعلو عليها، فالإحساس بالجوع لا يصبح «أنا جائع» بل «إن جسدى جائع»، أى كأنك تشاهد كلبك المدلل وهو جائع أو حين يحاول أن يجذب انتباهك فى موعد طعامه. وإذا أثار أحد غضبك فإنك تشعر كأنه استثار كيانك العاطفى، وتلاحظ وجود فاصل زمنى بين الفعل المثير والرد عليه، تفكر خلاله فى رد فعلك الانعكاسى وما إذا كنت ترغب فى رد الفعل هذا أم لا. وبالتالى، فإن الصيام يساعدك على معرفة مختلف مكونات كيانك (الجسد والعاطفة والعقل و «الأنا» جوهر الروح)، وستلاحظ اشتداد عزيمتك عند نهاية الشهر وقدرتك على أداء أشياء أكبر مما كنت تظن، وستصبح أقل تأثرًا بأعراض «لا أستطيع التحكم فى نفسى»، والمأمول أن هذا يساعدك على تحقيق المزيد من التقدم فى رحلتك الروحانية.

٥ ـ **الحج:** وهو مرة فى العمر لمن استطاع إليه سبيلاً ماديّا وجسديّا؛ والحج هو السفر إلى مكة قبل التاسع من ذى الحجة (الشهر الثانى عشر فى التقويم الهجرى)، يوم الوقوف بعرفات، ويستغرق الوصول إليه من مكة عشرين دقيقة بالسيارة عندما يقل الزحام، ويستغرق ساعتين بالسيارة عندما يسدّ مليونا حاج الطريق إليه. وإذا شهدت هذا اليوم فقد تمت حجتك، وإذا لم تشهده فقد ضاع عليك الحج هذا العام؛ ويفضل معظم الحجيج الوصول إلى مكة فى اليوم السادس من الشهر على الأكثر، ثم يقضون ثلاثة أيام فى منى (إحدى ضواحى مكة) قبل أن يستكملوا الصعود إلى عرفات؛ يرتدى الرجال إزارين من القطن غير المخيط، أحدهما حول الخصر والآخر حول الكتف، وذلك تأكيدًا لمبدأ المساواة بين الناس أمام الله. أما الحاجات من النساء فيرتدين ملابسهن كاملة ويكشفن عن وجوههن وأيديهن فقط. ويتم تأدية العديد من الشعائر خلال هذه الأيام، ويكون أكثرها إثارة الطواف سبع مرات حول الكعبة التى أسسها إبراهيم وابنه إسماعيل صلى الله عليهما وسلم.

وقد بدأ إبراهيم هذا الحج السنوى، عندما أمره الله ببناء الكعبة، أول بيت بنى لعبادة الله الواحد كما ورد ﷺ فى سورتى (البقرة: ١٢٥ـ ١٢٧ والحج: ٢٦ ـ ٣٣)، فقد

أمر الله إبراهيم بقوله تعالى : ﴿ **وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ [الحج : ٢٧] ؛ إن شعيرة الحج السنوية هذه فى وقتنا الحاضر تجذب أكثر من مليونى حاج يأتون من شتى أنحاء العالم ، وهو تكرار لبعض الشعائر التى كان يؤديها إبراهيم ﷺ ؛ فاستعداده التضحية بولده يتم استحضارها بتقديم هدى عادة ما يكون من الخراف ، كذلك هرولة هاجر بين الصفا والمروة قرب الكعبة يتم استحضارها عندما يهرول الحجيج أيضًا بينهما سبع مرات عقب الطواف بالكعبة ، والجلوس أمام الكعبة والنظر إليها هو تجربة تجعل المرء يشعر بالسكينة .

إن الحج هو زيارة لبيت الله ، يعود الحاج بعده وقد تغير ، وجزء من سبب هذا التغير هو أن الذهاب للحج أكثر من مجرد قرار شخصى ، ذلك أن تجربة الذهاب إلى الحج على عكس شعائر العبادة الأربع السابقة ـ ربما مع استثناء الشهادة ـ تجعل المسلم يشعر بأنه مدعو من قبل الله ، فعلى الرغم من أنك قد تتخذ قرار الحج مع اقتراب موعده ، إلا أنك تجد نفسك داخل دوامة من الأعمال التى تحملك فى الرحلة إلى مكة فى موعد الحج ؛ فتزول العوائق المادية ، ويتم تأدية الالتزامات العائلية والمهنية ، وتُرفع موانع الحصول على تأشيرة السفر ، أى أن الحاج يشهد سلسلة من المعجزات الصغيرة التى تمكنه من القيام بالرحلة ، وللغرابة قد لا تبدو الرحلة شاقة ، إلا أن الحاج ما إن يصل إلى مكة فإن الجغرافيا المقفرة للمشهد الصحراوى والطبيعة الشاقة للرحلة ، كلها تجعل الحاج يدرك أن رحلة الحج ليست لمتعة وراحة الجسد ؛ أى ليست نزهة ترفيهية . إن المرء إذا تخيل مدى قوة الوحى الإلهى الذى أنزل على النبى ﷺ فى مكة والمدينة ، مثلما حدث مع موسى ﷺ فى سيناء ، فسيشعر بفطرته أن الأرض ، دون ذكر ما عليها من نباتات وحيوانات ، لن تحتمل القوه الخارقة لهذا الوحى ؛ فالحاج يقوم بهذه الرحلة فى سبيل مرضاة الله ، لا ريب فى ذلك ، وهذا ما يشغل فكره طوال الرحلة .

لقد كان الحج ، ولقرون عديدة ، هو المؤتمر الإسلامى السنوى قبل أن تصبح المؤتمرات السنوية الحالية هى العادة . ففيه يتعارف الناس من شتى أنحاء العالم ويتعلمون من بعضهم البعض ، ويتبادلون الأفكار والمنتجات . فحتى وقت قريب ، ربما كان الحاج يشترى أثناء رحلته سجادة عجمية من أحد الحجاج الإيرانيين ، أو بخورًا من أحد الحجاج العمانيين ، إلا أن العولمة فى وقتنا الحاضر قد أدت إلى تغير الأوضاع :

فجميع سجاد الصلاة والسبح والساعات التى تنبه لمواقيت الصلاة وحتى السجاد العجمى يتم إنتاجه فى الصين.

وفى أداء الحج يقترب الحجاج من الكعبة، المكان الذى بدأ فيه إبراهيم ﷺ شعائر عبادة الله الواحد، وهى القبلة التى يستقبلها المسلمون خمس مرات يوميّا فى صلواتهم، وفى كل صلاة يصلّون على النبى ﷺ: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم»؛ فالمسلم الذى لا يصلى سوى الصلوات الخمس المفروضة، يذكر اسم إبراهيم ﷺ أربع مرات فى كل فرض، أى عشرين مرة فى اليوم الواحد، وإذا أضفنا صلاة السنن سنجد أن المسلم يذكر اسم إبراهيم ﷺ ما قد يزيد على أربعين مرة فى اليوم الواحد. وبذلك نجد أن شعائر الصلاة والحج يؤكدان على أن الإسلام هو دين إبراهيم ﷺ.

رسالة محمد ﷺ

الجزء الثانى: البحث عن الحقيقة الإلهية بالعقل

يتجسد الإيمان بالله فيما نطلق عليه جوهر الدين أو العقيدة؛ وهو ما يطلق عليه علماء الفقه «الدين القيم»، وهو مجموعة المعتقدات التى يجب أن تؤمن بها إن أردت أن تكون من أتباع هذا الدين.

الإيمان الصحيح: أركان الإيمان الخمسة

علمنا رسول الله ﷺ أن الإيمان الصحيح يتكون من الأركان الخمسة التالية:

١ ـ **الإيمان الراسخ بالله وحده لا شريك له ولا مثيل:** على الرغم من أن ذات الله غير معلومة للبشر، إلا أنه ﷺ قد وصف ذاته بتسع وتسعين اسمًا «أسماء الله الحسنى»، ومن بين هذه الأسماء التى أمر المسلمون باستخدامها عند ذكرهم لله: الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، القادر، المقتدر، السميع، البصير، العليم، اللطيف، الرءوف، الودود، الكريم، الغفور، المجيد، مالك يوم الدين، المنتقم. إنها «أسماء الله الحسنى» التى تصف علاقة الله بالبشر وسائر الخلق.

وجوهر ذلك هو أن علينا أن نقدر الله تقديراً خاصّا، فتصور الله بصورة خاطئة أو الافتراء عليه يعد إثمًا، فالقول بأن الله ضعيف، أو أنه غير قادر على فعل هذا الشيء أو ذاك، يعتبر بالنسبة للمسلمين تدنيسًا شديدًا للإيمان، فالله كامل مطلق، ولأنه هو الخالق والمبدئ والحافظ للكون، فهو يحفظ كل الكائنات؛ وما لا يحفظه الله لا يمكن أن يستمر فى الوجود، فقواعد الطبيعة ما هى إلا مجموعة السبل التى وضعها الله لعمل العالم المادى. سلسلة المسببات التى تدير العالم وتعمل فى الكون متناهية فى الزمان والمكان؛ فالله حى قيوم، وهو مسبب الأسباب. فهو يعمل ولا يُعمل به، يرى ولا يُرى، يسبب الحركة ولا يتحرك، يخلق الزمان والمكان ولا يحكمه زمان أو مكان، وعلى الرغم من ذلك فيمكن إدراكه ومعرفته.

عادة ما يشعر المرء بالدهشة عندما نتعرف على زميل لنا فى العمل وبعد بعض الوقت يدعونا إلى بيته ليعرفنا بعائلته، حيث نلاحظ شخصًا مختلفًا فى التعامل مع زوجته وأولاده، مما يدفعنا للتساؤل عما إذا كان هذا هو نفس الشخص الذى عملنا معه طوال هذه السنوات؛ وهذا هو ما يحدث أيضًا للإنسان عندما يتعرض لاسم من أسماء الله الحسنى، مثل الرءوف وآخر مثل المنتقم، حيث يصعب على النفس البشرية أن تدرك أن هذين اسمين لإله واحد. وكثير من الناس يرفضون إدراك هذه الحقيقة، ويظنون أنهم يتعاملون مع إله مختلف، وهناك حديث شريف يتضمن أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سيعرض كل أسمائه على الناس يوم القيامة، فيستجيب كلٌّ منهم لما أدركه وآمن به فى حياته الدنيا، ولا يستجيب للأسماء التى لم يسلم بها فى الحياة الدنيا، وأحسنهم فى هذا اليوم هو من آمن بأسماء الله كلها، ومن الأخطاء الشائعة التى نرتكبها فى حياتنا هذه أن نعتقد فى وجود آلهة متعددة طبقًا لتعدد أسماء الله، ولا ندرك الإله الواحد الذى يرتبط بخلقه بطرق مختلفة.

٢ ـ **الإيمان بوجود الملائكة:** وهى مخلوقات نورانية [بما يسمح بتأويل واسع لذلك الغيب] خلقت لتنفيذ أوامر إلهية، وأكثر هذه الملائكة شهرة هو جبريل الذى كانت مهمته الرئيسية هى أن يقوم بدور الوسيط بين الله وأنبيائه ـ رسله. وهو الذى بشر السيدة مريم بغلام دون أن يمسسها بشر[٦]، وهو الذى ضم محمدًا ﷺ وأخبره بأنه سيكون نبى الله وعلمه أولى آيات القرآن الكريم؛ ومن الملائكة أيضًا، «عزرائيل» وهو

ملك الموت، ومهمته هى أن يقبض الأرواح عندما يحين أجلها، و«ميكائيل» وهو الذى سينفخ فى الصور ليبعث الناس من قبورهم يوم القيامة؛ وقد أشرنا فيما سبق إلى الأعداد الهائلة من الملائكة الذين يعبدون الله أبدًا وفى أوضاع مختلفة قيامًا وركوعًا وسجودًا وجلوسًا، وهى الطريقة التى يؤدى بها المسلمون الصلاة، كما أن هناك ملائكة آخرين يشرفون على سير الوجود.

وهناك الملائكة المكلفون بمهمة مراقبتنا وتسجيل حسناتنا وسيئاتنا، ومن الملائكة من يسألنا بعد الموت ويرافقنا حيث مثوانا الأخير، وفى النهاية هناك ملائكة هم خزنة للجنة والنار، يقومون بإدخال الأبرار إلى الجنة و يلقون بالكفار فى النار، تنفيذًا لأمر الله سبحانه وتعالى.

٣ ـ **الإيمان بأن الله قد أرسل للبشر الكتب السماوية التى جاء بها الأنبياء:** والكتب السماوية الأربعة التى ذكرت فى القرآن هى «التوراة» التى جاء بها موسى عليه السلام، و«الزبور» الذى جاء به داود عليه السلام، و«الإنجيل» الذى جاء به عيسى عليه السلام، و«القرآن» الذى جاء به محمد عليه السلام، وقد ذكرت أيضًا صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام فى سورة الأعلى الآية رقم ١٩. يؤمن المسلمون أن كل كتاب من هذه الكتب هو كلام الله أنزله على نبى معين، كما يؤمن المسلمون كذلك أن المتشابهات الموجودة فى هذه الكتب المقدسة والإشارات القرآنية لما جاء فى هذه الكتب الأخرى يعود إلى كونها جميعًا ترجع لمصدر واحد وهو الله؛ ولأن بعض العلمانيين من علماء الدين ينكرون فكرة وجود الله تمامًا، كما أن بعض المتخصصين فى الدين الإسلامى من اليهود والمسيحيين ينكرون محمدًا عليه السلام، فإنهم مجبرون على التسليم بأن المسيح نقل أفكارًا من العهد القديم أو أن محمدًا عليه السلام قد نقل أفكارًا من العهد القديم والجديد، وقد أسهمت مواقف هذين الفريقين فى زيادة العداء بين أتباع ملة إبراهيم عليه السلام؛ وبالنسبة لموقف الإسلام من هذه القضية هو أن القرآن يؤكد على الحقائق التى وردت فى جميع الكتب السماوية، وأنه على الرغم من أنها نزلت على كل رسول بلغة قومه، وعلى الرغم من وجود بعض الاختلافات فى طريقة العبادات، إلا أن الله قد أنزل هذه الكتب السماوية لغرض واحد عريض: وهو الدعوة للإيمان الصحيح بالله، والتأكيد على الأخلاق الحميدة التى تفيد البشرية.

٤ ـ **الإيمان بالأنبياء والرسل:** ذكر القرآن الكريم خمسة وعشرين رسولاً بداية من آدم ثم نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان وموسى وهارون وأيوب ويونس ويحيى والمسيح عيسى وانتهاءً بمحمد عليهم صلوات الله وسلامه؛ كما أكد القرآن أنه على الرغم من ذكر بعض أسماء الرسل، هناك الكثير من الأنبياء الذين لم تذكر أسماؤهم، مثلما جاء فى سورة النساء، الآيات ١٦٣ـ١٦٤، وسورة غافر، الآية ٧٨، وأن الله قد أرسل لكل أمة رسولاً[٧]؛ فالأنبياء هم النافذة التى ينظر من خلالها البشر فيستشعرون الوجود الإلهى القوى ويمثل سلوكهم أسوة يستطيع الفرد البسيط أن يحتذى بها؛ كما أن الأنبياء بشر يرتكبون الأخطاء ـ على الرغم من أن بعض المسلمين يرون أنهم معصومون من الخطأ ـ وأخطاؤهم تمكننا من التقرب منهم، وتعطينا الأمل فى أننا أيضًا نستطيع تحقيق أعلى مكانة روحانية.

يفرق علم الكلام فى الإسلام بين النبى والرسول؛ فالنبى هو من أوحى الله إليه ولم يؤمر بتبليغ رسالة لهداية البشرية، أما الرسول فهو الذى أوحى الله إليه وأمر بتبليغ رسالة الهداية لقومه؛ ولذلك يعتبر بعض العلماء السيدة مريم أم عيسى نبية؛ لأن جبريل نزل عليها كى يبشرها بغلام، إلا أنها ليست رسولاً إلى قومها لأنها لم تكلف بالبلاغ، على عكس ولدها عيسى عليه السلام الذى قام بالبلاغ، والذى يعتبره المسلمون نبيًا ورسولاً من أعظم رسل الله.

٥ ـ **الإيمان بالآخرة، أو كما يطلق عليها المسلمون اليوم الآخر:** والآخرة عند المسلمين مفهوم مركب، فهى تعنى أن جميع الخلق سيفنون (وهى نوع من العكس لفكرة الانفجار الكبير للخلق)، وسيتبع ذلك يوم البعث حين تبعث كل الأنفس، ثم يوم الحساب حيث تحاسب كل نفس على أعمالها، وهى اللحظة التى تتحمل فيها كل نفس مسئولية أعمالها الأخلاقية. فهؤلاء الذين اتبعوا الصراط المستقيم سينالون رضى الله ونعيم الجنة، أما الذين اتبعوا خطوات الشيطان فسينالهم غضب الله ويسومهم سوء العذاب فى نار جهنم؛ ونحن نشعر بعذاب جهنم فى حياتنا الدنيا عندما يغضب منا الأشخاص الذين نحبهم (مثل الزوجة أو الوالدين أو رؤسائنا)، ونشعر بنعيم الجنة عندما تجمعنا السعادة معهم. ومما يتفق والمنطق أنه عندما يرضى عنا الله، خالق الكون الذى لا شريك له، فإننا نشعر بنعيم جنة الخلد، وعندما يغضب منا جل شأنه فإننا نشعر

بعذاب الجحيم؛ إن الفكرة الجوهرية فى الإيمان باليوم الآخر هى مسئولية الإنسان عن أفعاله، فنحن سنحاسب على أعمالنا؛ فسنجازى بالخير عما نقوم به من خير وما نظهره من رأفة ورحمة، وسنجازى بالشر عما نقوم به من ظلم وقسوة.

ولقد ذكرت هذه الأحداث بوضوح فى مواضع عديدة فى القرآن الكريم، والآيات التالية مثال على ذلك: ﴿**إِذَا السَّمَاءُ انفطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ (٥) يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِى أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ (٨) كَلاَّ بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ (٩) وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (١٢) إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ (١٥) وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ (١٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ**﴾ [الانفطار: ١ـ ١٩].

وقد وضح القرآن البر فى قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِى الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِى الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِى الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾[٨] [البقرة: ١٧٧]

كما بين القرآن الفرق بين التعبير الخارجى عن الإيمان، والإيمان الداخلى فى قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات: ١٤]، وهو ما يؤكد أيضًا أن الإيمان محله القلب.

يؤمن المسلمون فى شتى أنحاء العالم بكل العقائد والشرائع السابق ذكرها، فلا يجوز للمرء أن يختار من بين هذه ما يناسبه ويترك ما لا يناسبه ويدعى أنه مسلم، فكما

ذكرت آنفًا، أينما ذهب المسلمون فى العالم الإسلامي وعند دخولهم أى مسجد لأداء الصلاة، ووقوفهم بجوار مسلمين آخرين ليبدأ كلٌّ منهم الصلاة بقول «الله أكبر»، فإنهم بذلك يدخلون رجالاً ونساءً فى حالة اتحاد تام أمام الله؛ كما أن تأدية الصلاة باللغة العربية فى شتى أنحاء العالم تساعد على توحيد المسلمين بطريقة يدركها ويقدرها المسيحيون الكاثوليك الذين يتوقون إلى حضور القداس باللغة اللاتينية. ربما نتحدث لغات مختلفة، ونرتدى أزياء مختلفة، وتكون لنا ثقافات وسياسات مختلفة، إلا أننا جميعًا سواء أمام الخالق.

يؤمن المسلمون بقوة أنهم يعرفون كيف يعيشون أبرارًا، وكيف ينفذون وصية موسى ﷺ التى اعتبرها المسيح ﷺ من أعظم شرائع موسى؛ فبعد أن أوصى موسى ﷺ بنى إسرائيل أن ينتبهوا إلى حقيقة أن: «الرَّبُّ إِلهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فأحبوا الرب إلهكم من كل قلوبكم ونفوسكم وقوتكم». أضاف موسَى ﷺ قائلاً: «وضعوا هذه الكلمات التى أوصيكم بها على قلوبكم، وقصوها على أولادكم، وتحدثوا بها حين تجلسون فى بيوتكم، وحين تسيرون فى الطريق، وحين تنامون، وحين تنهضون، اربطوها علامة على أيديكم، واجعلوها عصائب على جباهكم. اكتبوها على قوائم أبواب بيوتكم وبوابات مدنكم» [سفر التثنية ٦: ٤ ـ ٩].

يبدو لى واضحًا من قراءة هذه الآيات من «سفر التثنية» أن هذا هو بالفعل ما يقوم به المسلمون، فالآباء المسلمون دائمًا ما يذكرون أبناءهم بأن لا ينسوا الله، وبأن الله واحد، وأن عليهم اتباع أوامر الله، ولقد اخترع المسلمون فنّا من فنون الخط، يكتبون فيها الكلمات المحببة لهم مثل الله ولا إله إلا الله، وآيات قرآنية أخرى، يتم تعليقها على أبواب منازلهم وبوابتهم. وقد يعلق المسلم هذه اللوحات من الخط على باب المنزل للتبرك بها، كما تتزين النساء المسلمات عادة بارتداء قلادة أو سوار كتب عليهما آية الكرسى[٩]، وقلما يخلو مسجد من هذه الكتابات، كما تلاحظ سعادة المسلمين عند تجميلهم للمنزل أو للسيارة أو الحاسبات الآلية أو الحاسبات المحمولة فى وقتنا الحالى بمثل هذه الكتابات التى تذكر اسم الله ووحدانيته. إن الكثير من المتاجر والمطاعم التى يمتلكها مسلمون، والتى قد تزورها فى مدينة نيويورك، يتم تزيينها بقطع من السجاد معلقة على الجدران كتبت عليها آيات قرآنية، وقد وجدت أن بعض بائعى الشطائر المسلمين فى أركان نيويورك قد وضعوا مثل هذه اللوحات على عرباتهم.

واكتسبت هذه الأفكار والعقائد وبشكل سريع طابعًا مؤسسيًا فى المجتمع الإسلامى. فالمسلمون يقومون بأداء الصلوات الخمس اليومية فى مساجد تقوم بإدارتها سلطة مركزية تابعة للحكومة، بالإضافة إلى تأديتهم لصلاة الجمعة التى تسبقها خطبة، وفى بعض مساجد المدن الكبرى، هناك من يدرس الفقه وعلم الكلام وعلوم الدين. وإذ يجتمع هؤلاء الدارسون حول أستاذ يتحلق حوله حشد من الطلاب، فقد تطورت هذه المجموعات من الدارسين إلى مدارس فكرية[١٠]، وكان هؤلاء الدارسون الذين يسافرون طلبًا للعلم من هؤلاء الأساتذة يقيمون فى المسجد أو فى أماكن ملاصقة له، وفى وقت ما أصبحت المدرسة القريبة من المسجد مظهرًا شائعًا. وأصبح بعض هذه المساجد، كالأزهر فى القاهرة، من المراكز الرئيسية لتعليم الإسلام. وبالتالى، فقد ارتبط المسجد منذ البداية بالتعليم ومما منع ظهور الانفصال بين الدين والعلم فى الإسلام كما حدث فى العالم الغربى، ويعود هذا فى الأغلب إلى أن القرآن لم يذكر أية معلومات عن طبيعة الخلق أو العلوم الطبيعية، وأنكرها العلم[١١].

رسالة محمد ﷺ

الجزء الثالث: حب الله والتواصل معه

يمكن أن نتصرف بسلوك قويم ونؤمن إيمانًا صحيحًا، ولكن نبقى موتى روحانيًا، أى أن نقيم الشعائر الصحيحة، ولكن لا تفعمنا بالنشاط الحياة الروحية فى الصميم. يشير القرآن لهذه الحالة عندما يأمر النبى ﷺ بأن يرد تأكيد الأعراب بأنهم أصبحوا مؤمنين، وأن يعلمهم بأنهم ما زالوا مجرد مسلمين، فيقول ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحجرات: ١٤].

يمكن أن يمارس الإيمان ظاهريًا، أى على مستوى الإسلام، بينما نكون غائبين أو ميتين داخليًا، أى على مستوى الإيمان، بل يمكن أن نتمتع بالتدين بهذين المعنيين ولكن تنقصنا النشوى بجمال الدين، والإحسان.

يوحى الإحسان بالجمال والتمكن والإتقان؛ ويتحقق بالاحتفاظ بالوعى الشديد بأننا نرى الله وأنه يرانا. والإحسان يعنى فضيلة حسن الطاعة التى تشمل حالتين: **الأولى** حالة حب الله سبحانه وتعالى، بكل جوانح القلب، **والثانية** حالة القرب أو الأنس بالله سبحانه وتعالى، وهى العيش فى وصال معه، سبحانه وتعالى.

الفضيلة الحقة: حب الله بكل جوانح القلب

إن تطهير النفس من أمراضها كالأنانية والطمع والشهوة والغيبة والحسد أمر ضرورى للوصول لدرجة الإحسان أو الفضيلة الحقة، حيث علمنا النبى ﷺ أن هذه الأمراض جمعيها تحبط من قيمة ما يقوم به المؤمن من أعمال العبادات، فيقول فى حديثة المشهور:

«أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال رسول الله ﷺ: المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاته وصيامه وزكاته، ويأتى قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا، فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته أخذ من خطاياهم فطرحت عليه، ثم طرح فى النار»(١٢).

يعلمنا هذا الحديث أنه حتى لو أقام المرء شعائر الدين بحماس، قد لا ينجو مع ذلك إذا كانت أخلاقه تنتهك حقوق الآخرين؛ لذا وحتى تكون عبدًا رابحًا يجب أن تسلم للنداء الإلهى، أن تسمع وتنتبه إلى أن الله واحد أحد، وأن يظهر هذا الفهم فى عقيدة المرء وأخلاقه؛ كما أن المجتمع الرابح هو المجتمع الذى يتحقق فيه فى نفس الوقت وصيتان هما: حب الله، وحب البشر. إن المسلمين يعتبرون أن النبى ﷺ ـ على المستوى الشخصى ـ إنسان كامل وقدوة يحتذى بها يتعلمون سلوكه ليقلدوه؛ وعلى المستوى الاجتماعى، يرى المسلمون مجتمع النبى ﷺ فى المدينة المجتمع المثالى، ويسعون لمحاكاة معاييره على مستوى المجتمع.

تساءل الناس على مر التاريخ الدينى، بما فيه التاريخ الإسلامى، عن معنى التقوى الدينية أو الروحية، وما هى العملية التى يصير البشر من خلالها أتقياء روحيًا؟ وإذا كانت الطاعة تعنى العيش فى هذه الحالة من «مراقبة الله»، فكيف يمكننا تحقيق ذلك؟

مر معظمنا بتجربة من نوع ما للسمو على الذات جعلتنا نعى أن هناك أمورًا فى الحياة أكثر من مجرد الكدح، حيث تتلاشى حدود الذات فى تلك اللحظات، ونشعر بتوحد مبهج مع الكون ومع الله. وفى تلك اللحظة، تطفو حقيقة الله على السطح بتجليها من اللاوعى إلى الوعى، وعندها نعرف بقناعة مطلقة أن الله موجود، وأنه رحيم عادل قوى عليم بكل شىء، كما ينبغى أن يكون؛ وهذه التجربة تمنحك إحساسًا يشعرك بأن الله يربت بحنو على كتفك ليعلمك بأنه موجود حقّا.

إذا كانت التقوى الروحية هى أن تعبد الله كأنك تراه، كما علمنا النبى ﷺ، فإن السؤال المنطقى هنا هو: هل يستطيع من لم يمر بهذه التجربة بعد أن يستحضرها؟ وهل يمكن لمن استشعروها أن تتكرر لهم، بالجلاء الذى نبصر به الشمس أو القمر؟(١٣).

إن من أسعدهم الحظ وعاشوا فى صحبة النبى ﷺ، كانوا مباركين لوجودهم فى المعية الساحرة لمن يتحدث الله إلى البشرية من خلاله؛ لذا كان صحابة النبى ﷺ يشعرون بالقوة الروحية والمعية والحيوية التى تتدفق من النبى ﷺ، وبالتالى كانت لديهم قناعة بوجود الله؛ ففى أحد الأحاديث: جاء صحابى إلى النبى ﷺ يشكو له بأنه عندما يكون فى صحبته ويحدثهم عن الآخرة يكون كمن يراها رأى العين، ولكن إذا رجع إلى أهله وعمله، يفقد هذا الشعور؛ لذا أهمه هذا الأمر مخافة أن يكون ارتد إلى النفاق ـ وهو أحد الكبائر فى الإسلام ـ فطمأنه النبى ﷺ وقال له: لو أنه ومن معه داوموا على الحالة التى يكونون عليها فى صحبة النبى ﷺ لنزلت الملائكة وحيتهم فى والسر العلن (أى كما قال ﷺ على فرشهم وفى طرقهم)(١٤).

تلك هى الحالة التى ترنو إلى استشعارها أرواح كثيرة ـ ألا وهى استحضار صحبة النبى ﷺ؛ ويسمى الصوفيون المسلمون هذه الحالة «المعية» أو «الحضرة»، ويمكن الوصول إليها بالذكر (ترديد اسم الله وآيات قرآنية أخرى)؛ يخاطب القرآن المؤمنين بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ** ﴾ [الأنفال٢٤].

بدأ النبى محمد ﷺ بالدخول فى هذه الحالة من المعية الإلهية عندما كان مستغرقًا ذات ليلة فى عام ٦١٠ م فى التأمل العميق وهو فى غار حراء فى أطراف مكة، حيث

دخل عليه جبريل وضمه ثلاث ضمات بقوة متزايدة وقرأ عليه الآيات القليلة الأولى من القرآن؛ كانت كل ضمة تصب قدراً كبيراً من القوة الروحية فى محمد ﷺ الذى عاد إلى بيته مرتجفًا ومرتعدًا ظانّا بأنه قد فقد عقله، وظل كذلك لعدة أيام. يمكن أن يكون هذا هو الأثر الأولى لتلقى الطاقة الروحية، وكانت الطاقة والقوة الكامنة عند تتالى نزول الوحى تأخذ شكل تصبب النبى ﷺ عرقًا حتى فى الأيام الباردة؛ ويؤكد القرآن على هذه القوة الروحية عندما يقول: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الحشر: ٢١].

علّم النبى ﷺ أصحابه ترديد بعض الآيات القرآنية ليثير فى أنفسهم تجربة مشابهة وذلك من خلال أحاديثه وصحبته المباشرة ومعيته واستخدام الانطباعات العقلية التى يخلفها سماع القرآن، وعندما كان ذلك يحدث للمرة الأولى كان يشكل عملية استهلال تتجاوز العقل وتعمل مباشرة على الروح. وبتكرارها فى مناسبات متعاقبة، تُدخل الروح فى حالة من الحضرة الإلهية نناجى فيها الله وتنفث الحياة فى أفعال العبادة؛ قد لا يستغرق الإنسان فى المرة الأولى؛ لأن مثل هذه التجربة تقع بالصدفة فى الغالب، ولكن يمكن أن ندرب إرادتنا وندخل بوعى فى حالة من الاتصال بالله.

عقب وفاة النبى ﷺ تدافعت الأجيال المتتالية للحصول على السلطة، وتغلب هؤلاء الذين يريدون اعتلاء السلطة باسم الدين على صحابة النبى ﷺ القلائل الذين تعلموا العيش فى معية الله. ويسمى هؤلاء الذين يحافظون على القدرة على إظهار العيش فى معية الله «أولياء الله». ويقدم حديث قدسى تعريفًا لكلمة ولى مع وصف الروح التى يعمل صاحبها على تنقيتها، كما رأينا سابقًا، والذى يصير الله له «سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها»[١٥]، وتشعر مثل هذه الروح دائمًا بالله وتتصرف طبقًا لأوامره؛ وفى حين أنه لا يرغب كل البشر فى محبة الله بطريقة تجعل فهمهم وأفعالهم موافقة لما حدده الله، فإن الكثيرين يطمحون فى ذلك. فكيف يستطيع هؤلاء بدء الرحلة والسير على الطريق الروحى الذى يأخذ لدرجة الولاية؟

تتألف آلية هذه الرحلة ـ وهى جوهر الصوفية ـ من عنصرين : **أولهما** ذكر الله أو الذكر ، والذى يتحقق على أفضل ما يكون من ترديد أسماء الله أو آيات قرآنية مختارة مثل الله ، ولا إله إلا الله ، وَغَيَرها ؛ فالذكر غذاء وقوت للروح ، كما أن الشيوخ الروحانيين هم ورثة دور النبى ﷺ فى تغذية الأمة روحانيّا ؛ وبالإضافة لذلك ، فإن الذكر مصدر قوى من مصادر اكتشاف الذات حيث يأتى العلم والقوة من خلاله ، فبدون العلم ، قد تكون القوة مصدراً للإضلال أو تكون ناقصة ، وبدون القوة على تحدى تقلبات الحياة ومجابهتها ، لا يقدر أحد على تحقيق إنجاز له قيمة كبيرة . يشمل الوحى الذى أنزل على النبى ﷺ (القرآن) العنصر الأول من الذكر ، أى أن القرآن ذكر الله الذى نزل للبشرية .

أما العنصر الثانى فهو الحاجة إلى معلم روحانى . فإذا اعتبرنا أن الذكر مشابه للموسيقى وأن المريد عازف فى الفرقة الموسيقية ، فإن المعلم يشبه قائد الفرقة التى يقودها ويرشدها . يتطلب الذكر ـ كى يكون مؤثراً ـ مذكراً يذكر وينقل الذكر فى هيئة آيات قرآنية ويلقن قلوب من يتأثرون بالذكر مبادئ هذه العملية ؛ وكان هذا هو الدور الأول للنبى ﷺ الذى أسماه القرآن مذكراً فى قوله تعالى : ﴿ **فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ** ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] ، وهذا هو دور كل نبى أو رسول على وجه الخصوص .

أنجز النبى ﷺ دوره كمذكر بطريقتين تعكسان الطريقتين اللتين تلقى بهما الذكر : **أولاهما** اجتذاب عقول الناس وإقناعهم ، **والثانية** ـ لم تكن أقل قوة ـ تعليم أصحابه كيفية طبع الذكر فى أرواحهم مباشرة ، أى تلقى التنزيل الإلهى .

بينما كان النبى ﷺ يقرأ القرآن على أصحابه ، كانت أفكار القرآن ومفاهيمه تجذب عقولهم وألبابهم فيجدون أن تعاليمه لها سحر فكرى ، ومن ثم كانوا يوظفون الإرادة لتقويم سلوكهم ليتماشى مع هذه التعاليم ، فيسمى الذكر فى هذا السياق ذكر العقل أو الفكر ، أى التأمل الفكرى والتفكر وما إلى ذلك . وهذا هو المعنى الأكثر شيوعًا ووضوحًا لفهم غالبية المسلمين لمصطلح الذكر .

لكن الصوفية يتحدثون عن ذكر الجوارح المختلفة : ذكر اللسان وهو تكرار ذكر

أسماء الله؛ وذكر القلب وهو حب الله والعمل على التخلص من أمراض القلوب مثل الأنانية والغيرة والغضب والحسد والشهوة والطمع والغيبة والقذف، والتمسك بالسلوك الحسن والأدب مع الله والبشر؛ وذكر الروح وهو الخضوع الروحى، والإدراك العميق والوعى والتفكر فى الله، والقرب أو الحضور مع الله والمعلم (المعية)؛ وذكر البدن ويضم شعائر العبادة: الصلاة خمس مرات فى اليوم مسبوقة بالوضوء، والزكاة وصوم رمضان والحج؛ وذكر الإرادة وهو حسن الاختيار وتجنب الآثام، أى معصية الله؛ وتعمل كل هذه الوجوه من الذكر معًا فى تعاون وتضافر.

يخبرنا المعلم الروحانى على أبو الحسن الشاذلى، مؤسس الطريقة التى سميت باسمه، الطريقة الشاذلية، بأن المعلمين والمرشدين الروحانيين (الذين أسماهم دعاة) على صنفين: صنف يأخذ دعوته من عالم الفهم العام (إذن عام)، وصنف يأخذ دعوته من عالم البصيرة الروحانية العميقة (البصيرة) بدعوة خاصة وإذن إلهى.

إن المعلمين الحاصلين على الإذن الخاص هم أولئك الذين دخلوا فى صراع داخلى مع أنفسهم غير المطهرة حتى أصبحت مطيعة ومهذبة ومتنورة، لكنهم مع ذلك لا يقدرون على تحقيق شىء أو حتى فعل أى شىء دون الحصول على إذن إلهى؛ ويقوم هؤلاء الدعاة الحاصلون على الإجازة الإلهية بدعوة الآخرين إلى الله بكل كيانهم حتى أن صمتهم يكون دعوة إلى الله؛ لأن «آيات الله» الغائرة فى أنفسهم ذبذبة رنانة تدعو الآخرين إلى الله، فأما من يستجيبون بسرعة لهم فهم يفعلون ذلك وفقًا لقدر الخيرية والإيمان فى قلوبهم.

إن المعاناة من السمات المشتركة فى حياة البشرية، وسببها الأول هو حالة البعد عن الله، كما يسميها الصوفية؛ لذا بدأ الرومى شاعر الصوفية فى القرن الثالث عشر رائعته الأدبية كتاب المثنوى بعقد تشبيه بين الإنسان المنفصل عن الله وقصبة لم تكن تصدر صوتًا قبل اقتلاعها من أصلها وتشكيلها على هيئة آلة نفخ:

«استمع إلى القصبة كيف تروى قصة، تشكو من البعد ـ وتقول: «منذ أن انفصلت عن أرض القصب، جعل عويلى الرجال والنساء تئن»[١٦].

تعبر أصوات حياة الإنسان والأغنيات التى نشدو بها والدعاء الذى نتضرع به وحتى

الطموحات التى نتشبث بها عن رغبة فى إعادة الصلة بالله؛ حيث إن كل معاناة البشر تنتج من الانفصال عن الله، وإن سعادة الإنسان الحقيقية تنجم من لمحات الألوهية. يتعلم الصوفية أن يروا الحياة الدنيا على أنها أحد أسباب المعاناة؛ ليعرفوا كيف يعانون حتى لا تؤثر عليهم المعاناة (ويتعلموا أن يموتوا قبل أن يموتوا كى يعانقوا الخلود)، ويعرفوا كيف ينجزون وينفصلون لكى لا يؤثر فيهم اكتساب الممتلكات أو فقدانها؛ فهذه هى التوجيهات الرئيسية لأسلوب حياة يتسم بالتسليم حقّا.

تمثل الأنا أصعب التحديات القائمة على الطريق الروحى، وأصعب درس فى تعلمه والاستمرار فى ممارسته، هو ضمان أن تكون الأفعال الأخلاقية محكومة بالأنا العليا وليس بالأنا السفلى. روى فى قصة أن علىً ابن عم النبى ﷺ كان يقاتل كافرًا أثناء إحدى الغزوات التى شنها المسلمون على أهل مكة، وكان على وشك التغلب عليه عندما بصق الكافر فى وجه على، فاندهش الكافر لما رأى عليّا يضع سيفه فى الغمد، وعندما سأله عن سبب هذا أجاب على قائلاً: «كنت أقاتلك فى الله، وعندما بصقت علَىّ خفت أن أقتلك غضبًا لنفسى»؛ فهذه هى المعايير التى تحكم عملية صناعة القرار لأخلاق قائمة على الإيمان.

الحب الأعظم حب الله

بعدما خلق الله آدم من طين، نفخ الله فى هذه الهيئة المادية من روحه (الحجر: ٢٩، ص: ٧٢)؛ لذلك ترتبط بيننا وبين خالق الكون علاقة خاصة وحالة من التبادلية الفريدة؛ إن لأرواحنا المخلوقة من روح الله أصل إلهى، ولها جميع خصائص الموجود الأعلى، كما أن لقطرة الماء جميع خصائص الماء المحيط بالأرض؛ لذا تتوق للحاق به، هذه هى الترجمة القرآنية لعبارة التوراة التى تنص على أن الله خلق الإنسان فى صورة إلهية[١٧]؛ وهكذا فإن وجودنا يمثل الكون فى صورة مصغرة، كما أنه يمثل الله بمعنى متفرد؛ لذا فإن الحب الأعظم هو عندما يتوحد حبنا مع أحد سبل الحب الإلهى ذاته.

إن المنظور البشرى العام الذى نعرفه عن أنفسنا هو الرأى الذى قد جاء من العلم الحديث الذى يعرف الإنسان من منظور يركز على الأرض بأنه مخلوق تطور من

البحر، وبأنه من الناحية الفسيولوچية من الثدييات ذوات الدم الحار التى لها صلة بالإنسان الأول، لكن لها عقل مفكر ومبدع، وبأنه حيوان اجتماعى نزاع للعيش مع غيره، يحتاج إلى العيش فى مجتمعات؛ ويعتبر هذا التعريف تعريفًا فيزيائيًا وبيولوچيًا واجتماعيًا فى المقام الأول ينقصه المقصد من الوجود غير الأكل والشرب والنوم والتكاثر، مثله مثل سائر المخلوقات؛ فمن يسيطر عليه هذا التعريف، ينظر إلى الحياة الدنيا على أنها مادة فى كافة وجوهها- الكل موجود والكل ينتهى. لكن هذا التعريف يدل على جزء من الحقيقة فقط.

أما بقية الحقيقة فهو المنظور الإلهى الذى يرى البشر على أنهم مخلوقات أرضية حقًا، ولكنهم أيضًا وعاء ومستودع الروح الإلهية حملهم الإله نفسه أمانة وأمرًا ساميًا بوجه خاص (وهذا ما أسماه القرآن أمانة، الأحزاب: ٧٢)؛ لذلك فعندما نتخذ هذا الوصف الذى يركز على الله ليكون رؤيتنا عالميًا، فإنه يعجل بحدوث تحول هام وهو التركيز على المقصد والغاية؛ ويتجلى هنا الفرق واضحًا ليس فى المعنى الفلسفى فحسب، بل فى المنظور التجريبى أيضًا. فعلى سبيل المثال، عندما نقابل شخصًا يعرف نفسه - بالمعنى الإنسانى فقط - فإن تأثير هذا الشخص علينا يكون ماديًا تمامًا، بينما عند مقابلة من يعرف نفسه - بالمعنى الإلهى - فإن تأثير هذا الشخص يدعو إلى التغيير.

الحب الصحيح: أحب مسيحك وليس حماره

يقول الرومى: إن العلاقة بين الروح والجسد تشبه المسيح وهو يركب حمارًا، فأصحاب الرؤية الدنيوية - فحسب - الذين يتجاهلون الروح يشبهون من «يستمع إلى أنين الحمار ويشعرون بالشفقة عليه»، ويتساءل قائلاً: «ألا يعلمون أن الحمار يأمرك بالبله؟» وينصحنا الرومى بقوله: «أشفق على المسيح (الروح المخلوقة فى صورة إلهية بداخلك والتى تسكن جسدك)، وليس على الحمار (نفسك المادية)»[١٨] لكنى على المستوى الشخصى أرى أن عدم الشفقة على الحمار أمر صعب؛ فأنا شخصيًا أحب القهوة باللبن والإفطار المكون من قطع سمك السلمون المدخن مع الخبز المصنوع من سبعة أنواع من الحبوب، لكننى وجدت أنه بالعناية بحمارى ينطلق «مسيحى الداخلى»

بى بسرعة أكبر. إن الحمار الذى يعرف أنه يحمل مسيحًا وليس حزمة قش يكون أكثر رضًا وسعادة.

رأى الرومى مهم، فالسمو الإنسانى يكمن فى روحانيتنا ـ الأصل الأعمق لنفسيتنا ـ وليس فى فسيولوچيتنا، حيث إن هذه الروحانية هى التى جعلتنا خلفاء لله وعبادًا له بالتوافق مع الأمثلة التى قدمها لنا الأنبياء والأولياء. وحيث إننا الصورة الأسمى للخلق، فإننا أكثر المواطن تطورًا التى تتجلى فيها صفات الألوهية، بما فيها رغبتها فى أن تكون معروفة. وإذا اضطررنا لتفضيل واحدة على حساب الأخرى، فينبغى علينا أن نحترم روحنا على حساب أجسادنا وليس العكس ـ وهذا ما نصح به الرومى.

يتجلى التوافق بين أرواحنا وبين الله فى نفسيتنا الإنسانية الخالصة. أى فى ميلنا نحو النظر إلى أنفسنا ككنوز مخبوءة «تحب أن تُعرف». لذلك، فإن صراعنا فى هذه الحياة يأخذنا إلى رحلات من اكتشاف الذات تعكس ذلك، حيث نسعى لمعرفة واكتشاف الغاية من وجودنا، ولكن ما لم نتجاوب مع خلق الله لنا بالاقتناع بوجود الله فى وجداننا، لقُضى علينا بالدخول فى حلقة لا نهائية من العمل الشاق للوصول لهدف مرغوب، ولكن سرعان ما نمل منه بعد تحقيقه، تمامًا مثلما كنا نمل من ألعابنا عندما كنا أطفالاً.

يؤدى اكتشافنا لذاتنا إلى اكتشاف الله، ولا يقل صحة عن ذلك أن اكتشاف الله يقود إلى اكتشاف أكبر وأدق للذات. لذا فإننا نتعرف على الله عندما نعرف من نحن وما ماهيتنا. والمفارقة أنه ليس أقل من هذا صحة أننا نتعرف على أنفسنا عندما نعرف الله، وهذا ما عبر عنه الإمام على ببلاغته فى قوله: «من يعرف نفسه يعرف ربه».

أفضل ما نقدمه لله

صقل مرآتنا

دعا الله الإنسانية إلى الوصول للكمال، ولا يعنى هذا أنه يتعين علينا فقط أن نتخلص من كل ما هو سيئ وحقير فى أنفسنا، بل يجب علينا أيضًا تنمية مهارات أرفع

وأسمى. من بين الصور التى يستخدمها الصوفى فى وصف مهمة اجتياز الطريق هى صقل المرآة ليصير أفضل وأدق وأشف عاكس ممكن للألوهية؛ وهذا هو أفضل طريق لحب الله. فأى شىء نقدمه لله أفضل من أن نكون أفضل مرآة ممكنة يرى فيها انعكاس روحه التى نفثها فينا ؟ أى مدلول أفضل يمكن أن نعطيه لكوننا مخلوقين على الصورة الإلهية من أن ندرك أننا مجرد مرايا، ونسعى لإضفاء الكمال على الصورة الإلهية فى داخلنا؟

بمقدورنا بلوغ النضج الروحى باتباع طريق يتصاعد تدريجيّا، لكن يمكننا كذلك اختيار طريق التسلق منحدراً وضيقًا وأكثر اتسامًا بالتحدى على الدوام على نحو أسرع. وهذا السبيل نجده من خلال «الطريق» كما يسميه الصوفية.

ليست كل الأرواح مدفوعة لاتباع هذا «الطريق»؛ إنما هم فقط المختارون كما قالها المسيح، والمقربون كما أسماهم القرآن، والخواص كما يُطلق عليهم فى بعض الكتابات الإسلامية. وهذه الأرواح تتمنى أن تصل إلى الغاية بشكل أسرع ليس لمصلحتها فحسب، بل أيضًا من أجل مساعدة الآخرين على المضى قُدُمًا؛ وشأنهم شأن سائر البشر، يحيا هؤلاء حياة صعبة مليئة بالأحزان والابتلاءات والمشكلات، لكنهم مزودون ببصيرة عميقة وسعادة ساكنة؛ لأن اختبارات الحياة أمدتهم بالبصيرة، فخلال العمر الواحد يكتسبون خبرة عدة حيوات؛ ويتمنون أن يواصلوا السير برغم مشقته. وهؤلاء المختارون دعاهم الله فسمعوا نداءه ولبوه، فهم من يريد المعرفة ويسعى وراء إيجاد إجابة كاملة على السؤال : «من أين جئنا وإلى أين نمضى؟» وحيث إنهم مستعدون لإدخال أنفسهم فى اختبارات ومحاكمات، فهم يصلون إلى النضج الروحى أسرع من غيرهم ويجدون السلام والسعادة حتى فى هذه الحياة من خلال مد اليد بالعون والتأييد والمواساة والمساعدة والرعاية والحب.

وأعظم هؤلاء هم الذين يصلون إلى درجة الولاية (ولى الله). ويمكن لأولياء الله استجلاء الدوافع الخفية فى قلوب الآخرين، كما يشعرون بالألم على الآثار السلبية والصعبة لهذه الدوافع فى الحاضر والمستقبل أيضًا، ويبدو أنهم غالبًا ما يكونون محاطين بجو من المعجزات ـ التى هى فى الحقيقة يد الله الخفية التى تمرر من خلال هذه الأرواح المحبة ما يريد أن يكشفه.

يمكن لكل روح بشرية، وينبغى لها، أن تعبر هذا الطريق، على الرغم من أن الوصول إلى مرحلة الولاية يتطلب التزامًا بنقاء القلب والنية وبجلاء الكلام والأفعال مصحوبًا باستعداد للعمل لسنوات غالبًا ما تكون فى صمت وعزلة حتى يتحقق ما يمكن للفهم البشرى أن يدركه.

يؤكد القرآن أن جميع أرواح البشر وقفت أمام الله قبل الوجود، وأمرت أن لا تنسى الله أثناء إقامتها المؤقتة فى هذه الدنيا، فلماذا لا نذكر هذا الميثاق الذى أخذه الله علينا؟ ولماذا لا نتذكر يوم وقفنا أمامه وسؤاله إيانا «ألست بربكم؟» (الأعراف: ١٧٢). يوجد برزخ بين العوالم المختلفة خفى على نحو يحجب إدراك البشر لمهالك الانتقال من دار إلى أخرى. وتمامًا كما نستيقظ من حلم وتتلاشى أحداثه من الذاكرة، فإننا ننهل من فيض من النسيان يطمس وعينا بالتجربة رغم انطباع الذكرى فى اللاوعى، وتبقى مهمتنا هى تعلم كيفية إزاحة هذا الحجاب، وأن نتذكر فى عالم الشهادة ما شهدناه وفعلناه فى غيره.

خلقنى الله سريع الجرى، وعندما أجرى أشعر برضاه

الغاية من الأخلاق والفضيلة هى أن تقودنا إلى الله وتساعدنا على إبقاء الحضرة الإلهية معنا، وبالأصح على بقائنا فى معية الله[١٩].

يوصينا الشيخ على الحموى فى شرحه لكتاب **رسالة فى التوحيد** للشيخ والى رسلان بأننا ينبغى أن نعطى معية الله حقها، وأن نتحلى بالسلوك الأمثل دائمًا من أجل الله. فإذا نجحنا فى الدخول فى حضرة الله وجعلنا واقعنا مسرحًا مهيئًا للانهائيته وعجائبه مع هوان شأننا، فسوف يستر فقرنا بغناه، وضعفنا بقوته، وعجزنا بقدرته، وجهلنا بعلمه وحكمته، وذلنا الباعث على القنوط بعزته، وعدمنا المتوقع والنسبى بوجوده، ويستعرض عظمته فى لوحتنا[٢٠]، وكما قال العداء فى فيلم عربات النار «Chariots of Fire» خلقنى الله سريع الجرى، وعندما أجرى أشعر برضاه».

وبنفس الطريقة خلقنا الله على صور مختلفة: فنانين وكتّاب عظام يشعرون برضا الله عندما يخرجون لنا أعمالاً فنية؛ ومزارعين أكفاء يشعرون برضا الله عندما يزرعون؛

وآباء رائعين يستشعرون برضاه عندما يمارسون الأبوة، وما إلى غير ذلك. لكن الله خلقنا فى المقام الأول كائنات عابدة؛ لذا فإن سعادتنا العظمى هى بالفعل التفكر فى الله.

يعتقد المسلمون ـ شأنهم فى ذلك شأن كثير من أصحاب الديانات الأخرى ـ أن عبادة الله بإخلاص وعلى نحو صحيح أمر ضرورى لخير المجتمع. فقد جاء النبى محمد ﷺ ليؤكد رسالة إبراهيم ﷺ بأن لا إله إلا الله، التى حث المسلمين على ذكرها كثيرا (الأحزاب: ٤١) ﴿**قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران: ١٩٠]. ويجد المسلمون فى ذكر أسماء الله راحة عميقة وصلة حقيقية وملموسة بالله، كما يؤكد القرآن فى قوله تعالى: ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾ [الرعد: ٢٨]؛ ويسجد المسلمون الورعون بسعادة على وجوههم أربع أو ست أو ثمانى مرات فى كل صلاة من صلوات اليوم الخمس، تعبيراً عن الخشوع لله، ويرون أن هذا الفعل هو أسمى أفعال الصلاة. كذلك فهم يتوقون إلى صيام شهر كامل هو شهر رمضان الشهر التاسع من السنة القمرية، ولا ينظرون إلى هذا الصيام على أنه مشقة، بل يرونه جائزة روحية يشعرون فيها بسعادة عميقة.

قبل أن يصبح راهبًا من الرهبان الممتنعين عن الكلام، كان الملازم الفرنسى الشاب كريستيان دو تشيرج يشعر أنه منجذب بشدة نحو المسلمين الجزائريين الذين قال عنهم: «إنهم مغموسون فى حس إلهى». فكان يستطيع أن يتحدث معهم «بدون تحرّج عن الله على عكس ما يحدث فى فرنسا؛ حيث كان الحديث عن الله هناك يصيب الناس بشعور من عدم الراحة»[٢١]؛ كما كان الرهبان المسيحيون يشعرون بأن المسلمين الجزائريين «يعيشون فى الإخلاص الذى تتميز به الحياة المسيحية»، فى حين كان جيرانهم من المسلمين يعتقدون أن الرهبان «يحيون حياة إسلامية حقيقية»؛ وهذا يوضح أن الدين ليس بطاقة تعريف نلصقها بأفعالنا، بل هو نوعية أعمالنا التى تفصح عن الإخلاص لله وعن السلوك الأخلاقى تجاه الآخرين من البشر.

التصـوف:

الغـزالى وطـريق قـل من يسلكه

كـانت أبرز التطورات الدينية فى العالم الإسلامى منذ بضعة قرون هى إضفاء طابع مؤسسى على الطرق الصوفية وانتشارها. فعلى الرغم من أن الصوفية بدأت مع بداية التاريخ الإسلامى، إلا أن الحكمة الصوفية كانت ثروة لا يحوزها إلا قلة من صفوة الأتقياء المنعزلين عن تيار التقدم السياسى الإسلامى، وقد كان الصوفيون ـ الذين كانوا عادة ما يهمشون ويساء فهمهم ـ يتهمون بالإفراط فى أمور العبادة.

ومـا أحدث فـرقًـا هو عـمل رجل واحـد هو أبو حـامـد الغـزالى (١٠٥٨ـ ١١١١م) والمعروف فى الغرب بالغزّال. فقد عاش الغزالى فى عصر ساد فيه الاضطراب والإثارة السياسية، فى وقت كانت فيه ـ حسبما ذكر المؤرخ أبو الفداء ـ «الخلافة العباسية فى حالة من الانحطاط والانحدار؛ وكان الحكم العربى فى بغداد قد انتهى أو أوشك على الانتهاء؛ كذلك كانت إسپانيا فى حالة ثورة ضد حكامها المسلمين، حيث كان الكاهن بيتر يستدعى الرجال للحروب الصليبية، وكان الناس ـ بسبب اختلافات سياسية ودينية ـ منقسـمين إلى سنة وشيـعـة، كذلك كان الأشـاعـرة يعـارضـون المعـتزلة بدعم من السلاجقة الأتراك. يرى البروفيسور إتش إيه آر جيب أن «الغزالى رجل يقف على قدم وساق مع القديس أوغسطين ولوثر فى التبصر الدينى والقوة الفكرية»[٢٢].

يمر معظم رجال الدين بأزمة، وهى التى أطلق عليها القديس أوغسطين ليلة الروح المظلمة؛ تماثل معايشة زلزال أرضى. إذ يتداعى كل أساس كنا نعتقد أنه كان متينًا ومدعمًا لرؤيتنا للعالم ولهويتنا ـ ومع ذلك نظل على قيد الحياة! ـ وبعد وصوله للقمة فى مسيرة عطائه كمتكلم وعالم وفيلسوف وفقيه شهير له علاقات كبيرة مع ذوى الشأن، مر الغزالى بأزمة وجودية وهى اعترافه لنفسه أنه كان فارغًا من الداخل.

عانى الغزالى الذى كان صديقًا مقدرًا ومحترمًا لنظام الملك ـ وزير السلاجقة الذى صار حاكمًا فيما بعد ـ من أزمته الوجودية فى منتصف الأربعينيات من عمره فى الأعوام التى بدأت من عام ١٠٩٠، فكما ذكر أحد رواة سيرته، طغى «شيطان العبث والسعى للقيادة والشهرة» على شخصيته فى ذلك الوقت، كما كان يسعد بإحباط

الناس «بسبب الغطرسة والكبر والانبهار بما وهب من ملكات البراعة فى الحديث والفكر والتعبير وطلبه للمجد والمركز المرموق»، وتعقدت أزمة الغزالى بخوف شخصى طغى عليه وجعله عاجزًا عن التدريس أو حتى الحديث، فقد «صار متيقنًا أنه كان على شفا جرف هار، وأنه بالفعل كان على حافة السقوط فى النار، إلا إذا شرع فى إصلاح سلوكه»[٢٣].

عندما شعر أنه لم يعد قادرًا على تحمل خوفه، قرر أن يتخذ موقفًا. فحصل على إجازة من منصبه فى التدريس، وقام بترتيب شئونه الشخصية، وأخبر الناس أنه ذاهب لأداء الحج فى مكة وقصد سوريا. وبعد عشر سنوات قضاها فى الدراسة مع الصوفيين وحج خلالها عاد الغزالى لبلده إنسانًا مختلفًا، وألف رائعته كتاب إحياء علوم الدين، كما كتب سيرة ذاتية ممتازة وصف فيها أزمته الروحية وأسبابها، وكيف أنه وجد منهجه فى الصوفية.

يتحدث كتاب إحياء علوم الدين عن «كيف تكون مؤمنًا حقًا»، فهو يأخذ القارئ من فهم للعقيدة إلى الحديث عن أداء الصلاة والزكاة والصيام والحج، كما يتناول السلوك الحسن مع الأصدقاء والأزواج والأسرة، كما يغطى أمراض القلوب وطرق علاجها، وأخيرًا يتحدث عن الأمور التى تقود إلى النجاة وهى: التوبة والصبر والشكر وتقوى الله والرجاء والفقر والحب والألفة بالله وصدق النية والوعى والمراقبة الروحية على النفس وذكر الله وكيفيته والتفكر فى الموت والآخرة. ويبقى إحياء علوم الدين دليلاً متكاملاً للمسلمين المخلصين فى جميع مناحى الحياة: بدءًا بالحياة الدينية والعبادة وشعائر التعبد والسلوك الاجتماعى إلى تطهير القلب والارتقاء على الطريق الروحى.

يذكرنا العالم اليسوعى الراحل ريتشارد جيه مكارثى أن أهمية الغزالى لا تكمن كما قلنا فى اتخاذه طريقًا جديدًا أخذ يستعر، بل فى دخوله سبيلاً استعر بالفعل (لكنه طريق قل من يسلكه) و«جعله أكثر الطرق العامة شيوعًا»؛ وفى الحقيقة كان هناك رجال آخرون من علماء المنطق أذكى منه ومتكلمون وفقهاء وقضاة أعلم منه وأولياء أكثر منه موهبة، لكنه من خلال تجارب شخصية «توصل إلى إحساس غلاب بالحقائق الإلهية، حول شخصيته التى كانت فيما مضى حادة وعصبية[٢٤] تجتاح كل ما يقابلها» وقاد الإسلام إلى «حقبة جديدة من وجوده».

إن ما يستهوى علماء الغرب فى الغزالى ليس فقط تأثيره العميق على المسلمين، بل أيضًا تأثيره الشديد على غير المسلمين فى عصره، واستمرار هذا التأثير حتى وقتنا هذا؛ حيث يوضح الأب اليسوعى فينزينزو بوجى أن أعمال الغزالى الأخرى كانت معروفة فعلاً لأتباع الفلسفة السكولاستية المتشددين فى التمسك بالأصول بدءًا من النصف الثانى من القرن الثانى عشر[٢٥]، فى حين يعتقد بعض العلماء المسيحيين أن الغزالى أثر على القديس توماس الأكوينى (١٢٢٥ـ ١٢٧٤م) الذى درس الكُتاب العرب واعترف بالامتنان لهم[٢٦]، ويمضى بوجى فى بيان أن بعض الكتاب المسيحيين قد انتحلوا حتى أفكار الغزالى ونسبوها لأنفسهم دون أن يرجعوا الفضل إليه. كذلك درس تأثير كتاب «المنقذ من الضلال» للغزالى على الفيلسوف اليهودى الشهير ابن ميمون (١١٣٥ـ ١٢٠٤م) خاصة فى كتابه الذى ألفه باللغة العربية «دلالة الحائرين» الذى ترجمه صموئيل بن تيبون إلى العبرية. ويقول الكاهن اليسوعى والعالم بشئون الإسلام آر جيه ريتشارد مكارثى إن ابن ميمون تشكل على طريقة الغزالى فى بعض النواحى حين كتب دفاعًا عن عقيدته، وبهذا «قدم لدين قومه خدمة جليلة قدمها الغزالى للإسلام»[٢٧].

ربما تكون أهم الأسئلة وأكثرها إثارة من بين الأسئلة التى طرحها بوجى هو سؤاله عن سبب استمرار الاهتمام الخاص الذى يوليه غير المسلمين ـ خاصة من رجال الدين المسيحى من البروتستانت والكاثوليك ـ للغزالى؟ فيقول بعد استبعاد مجرد المصادفة: إن هذا له علاقة «بشىء حقيقى فى الغزالى يجذب إليه انتباه من ـ وإن لم يكن على دينه ـ **لديه فى قلبه دفاع عن حقوق الله وثقة فى الإحياء الدينى للإنسانية**» (الطباعة بالحرف الأسود من إضافتى)[٢٨].

بعبارة بسيطة، من الضرورى أن يقوم بدراسة الغزالى كل من يؤمن بأن الدين له دور فى حياة الفرد والجماعة، وأنه يجب وضعه فى بؤرة الاهتمام، والمؤكد أن هذا أمر هام لمن يعمل منا الآن فى ميدان حوار الأديان.

تحول الغزالى بعد أن تخلى عن خصال الكبر التى كان يتصف بها إلى شخصية ذات روح هادئة وصفات نبيلة؛ حيث هاجم بشدة الامتثال الذليل (التقليد من أسوأ نوع) وأدرك حقيقة وفاعلية كل مجال من مجالات المعرفة؛ بدءًا بالفلسفة والعلوم الطبيعية وانتهاءً بالدين والروحانية معترفًا بجدوى كلٍّ منها مع وضع حدودها فى الاعتبار. وقد

قاده تركيزه الذى لا يفتر على فهم الحقيقة، ووضع الحقيقة فوق الجميع من حيث الأهمية إلى تطبيق قاعدة «اعرف الرجال بالحق ولا تعرف الحق بالرجال»[٢٩]؛ فعقله المتفتح لغيره من الديانات الأخرى والذى اقترن بكره ـ للاتهامات الرخيصة ـ بالهرطقة، جعله شخصية هامة فى أية مناقشة خاصة بالتقريب بين العالم الإسلامى والغرب.

الادعاء الطاغى

يتساءل مكارثى: هل لدى الغزالى ما يقوله لنا بعد مرور أكثر من تسعمائة عام؟ هل لدى كتابه «المنقذ من الضلال» ما يقدمه لرجال ونساء هذا العصر؟ ربما يكون أكثر الأشياء التى يقدمها لنا هو مساعدته إيانا فى أن نكون أمناء روحانيّا مع أنفسنا، وهى مشكلة دينية يعانى معظمنا منها.

ما هى هذه المشكلة الدينية؟ معظم الناس ممتثلون: فنحن نمتثل للموضة فيما يتعلق بالأزياء، وأيضًا فى الأمور التى تتعلق بالأفكار، فمن الصعب عدم الامتثال حتى فى أمور العقائد والأفكار والقيم. لكن الامتثال الأعمى فى ممارسة الدين يؤدى إلى مشكلة دينية واحدة محددة، ألا وهى الادعاء.

إن الادعاء أمر طبيعى فى الشأن الدينى، حيث يدعى الناس أنهم يعلمون، لكنهم فى الواقع لا يعلمون، وهذا نفاق انتقده القرآن على نحو قاطع، وكان صحابة النبى ﷺ دائمًا على حذر منه وقلق عميق من احتمال أن يقعوا فيه. ويسمى القرآن النفاق مرضًا من أمراض القلوب (محمد: ٢٩) ويضيف بأن الله قادر على فضح المنافقين «بسيماهم» (محمد: ٣٠)، ويمكننا بكل تأكيد أن نتعرّف عليهم «فى لحن القول»[٣٠].

استشعر الغزالى فى علماء عصره فساد مقصدهم من العلم الدينى؛ حيث كان يستخدم فى تحقيق نفع دنيوى، فى حين أن المقصد الحقيقى من الدين هو إدراك النجاة فى الآخرة. وبالمثل قام مارتن لوثر بمهاجمة الكنيسة وتحدث عن فساد العلم الدينى

عندما يستغل لمكاسب دنيوية؛ ويعتبر هذا الفساد مرضًا متوطنًا فى الوضع الدينى ويجب تحديد منبته والعمل على استئصاله من الأفراد والجماعات، وهذا فى حال ما إذا كان المرء يريد أن يصبح إنسانًا متدينًا حقّا، وإلا سوف يستخدم العلم الدينى فى الوصول لغايات فاسدة.

قال الغزالى: إن التفكير أو معرفة الكثير عن الله الذى يقارن بالعيش فى تجربة حب مع الله ـ التى تسمى بمصطلحات الصوفية: الكشف ـ يشبه من عرف كل شىء عن السُّكْر وهو لم يسكر قط[٣١]، ذلك أن التدين الزائف يماثل طبيبًا يعرف كل شىء عن الصحة غير أنه لا يرغب فى تناول الدواء الذى يتعافى به المرء. وبهذا يكون الطريق الصواب هو الطريق الذى يجعل المريد ينهل من كأس الكشف، كأس الصحة الروحية، وتظهر نتائجه ليس فقط فى المعرفة الداخلية أو الدراية بالله، بل فى العمل الظاهرى على تنقية النفس من جميع الأمراض الروحية، وأشدها النفاق والأنانية وخداع الذات، ومن بينها أيضًا الرذائل التى كان يتسم بها الغزالى نفسه قبل أن يشرع فى رحلته الروحية.

استطاع الغزالى بالجمع بين مخاطبة قرائه بلغة أعلى درجات الفكر فى عصره، وبين لغة أبسط ما تكون يسهل فهمها على العامة، أن يؤجج التقوى الحقيقية، التقوى الموجودة فى قلوب العامة على مستوى العالم رغم سقوط وفساد قادتهم السياسيين والفكريين وحتى الدينيين. ربما كان الغزالى أعظم رائد فى المواجهة الدينية للمسلمين مع الفلسفة اليونانية، كما قرب بين التدين القويم والتصوف، فجعلت مصنفاته المتكلمين على استعداد أكبر لقبول واحترام المتصوفة، كما جعلت المتصوفة أكثر حرصًا على اتباع المسلمين السنة. واستطاع الغزالى بالبحث فى جوهر التجربة الدينية أن يظهر الإسلام كدين عالمى يتصل بواقع البشرية، وليس دينًا عربيًا يرتبط بالثقافة العربية؛ وبذا يكون قد قدّم خدمة قيمة فى وقت كان فيه الطابع العربى للعالم الإسلامى قد بدأ فى الزوال مع انتقال القوة السياسية إلى المجتمعات الآسيوية غير المسلمة.

تقول رسالة الغزالى لنا فى الوقت الحالى كيف يجب أن ينهض المسلمون لمواجهة التحديات التى يطرحها الغرب، فيجب على المسلمين أن لا ينبذوا الغرب ولا تراثه

الخاص، بل يجب دراستهما وفهمهما معًا لتقدير ما يمكن تعظيمه وطرح كل ما ليس مفيد، ولإبراز ومناقشة وضعنا بلغة بسيطة وواضحة يفهمها الجميع. يوجد فى التجربة الإسلامية الكثير مما هو قيم فى ذاته ويمكن أن يكون كذلك للغرب، كما أن هناك الكثير فى التجربة الغربية يمكن أن يكون مفيداً للمسلمين. يحتاج المسلمون اليوم إلى إحياء علوم الدين بطريقة تخاطب الحالة الدائمة بنفس عمق خطابها للحالة المعاصرة، وفوق هذا كله يجب على المسلمين أن يفعلوا هذا بأمانة واهتمام بالحقيقة وجمال فى الطبع.

* * *

obeikan.com